بين النقاد والكتاب

ضايق النقاد الكاتب الروسى الكبير إيفان ترجنيف واشتدوا عليه ورموه بأنه لا يعرف روح عصره ولا يحسن تصويره ، وكان الرجل فناناً شاعراً لا يجيد صناعة الجدل ولا يحسن فن المهاترة ، فرأى أن يهدى إلى النقاد طرفة من شعره المنثور عنوانها «السخيف» وفيها يقول :

-كان يعيش أحد السخفاء .

وقضى ردحاً من الزمن آمن السرب ، هادئ البال راضياً قانعاً ، ولكن ذاع عنه فى الآفاق شيئاً فشيئاً أنه عامى الذهن فسل الرأى .

فحز ذلك فى نفسه وأحفظه وأهمه ، فأخذ يشحذ ذهنه الكليل ويكد فكره ليهتدى إلى حيلة تنقذه من هذه السمعة ؛ وتبطل تلك القالة .

وأخيراً أومضت فى ذهنه الخابى الضئيل فكرة ... وبدون أدنى تردد أخذ فى تنفيذها .

لقيه أحد أصدقائه فى الطريق وبدأ يثنى على مصور معروف .

فصاح به السخيف : أؤكد لك أن هذا المصور قد أصبح من الطراز العتيق الذى مضى أوانه ، وأنا أعجب كيف تجهل ذلك ؟ ومثل هذا لا ينتظر منك ... أنت يا صاحبى متأخر ...

فأخاف ذلك الصديق فسارع إلى مشايعة السخيف على رأيه .

وقال له صديق آخر : لقد قرأت بالأمس كتاباً بارعاً !

فقال له السخيف : أنا أعجب لك ، هذا الكتاب لا قيمة له على

الإطلاق ، وصدقني إن كل ما فيه أشياء مبتذلة قد لاكتها الألسن ، ومجتها الأسماع ... ولست أدرى كيف غاب عنك ذلك ؟ ... أنت متخلف عن العصر ، وأفزع ذلك الصديق فبادر إلى موافقة السخيف والأخذ برأيه .

وقال له صديق ثالث : لله صديقنا (ن . ن) ما أنبل أخلاقه ! لقد آمنت بأن فى الدنيا رجالاً كرام النفوس ! فصاح به السخيف : إنه وغد زنيم يخدع الناس ويغرر بهم ، وقد عرف الناس جميعاً عنه ذلك ... أنت يا صاحبى متأخر جداً ..!

فهال ذلك الصديق ، وأقر السخيف على رأيه ، وهجر صديقه .

واتخذ السخيف هذا المذهب ولم ينحرف عنه ، فكان كلما ذكر فى حضرته ثناء على أحد أو على أى شىء من الأشياء اندرأ عليه بالانتقاص والزراية والتحقير .

وفى بعض الأوقات كان يضيف إلى ذلك قوله لمحدثه : ألا تزال تؤمن بهؤلاء الذين يسمونهم العارفين الثقات ؟ وأخذ أصدقاء السخيف يقولون عنه : إنه حقود شتام ولكنه مشتعل الذكاء لامع التفكير !

وكان غيرهم من الناس يقولون : ما أحد مقوله الصارم ! وكان يضيف بعض إلى ذلك قوله : لا جدال فى أنه نابغة !

وانتهى الأمر بأن أحد أصحاب المجلات اقترح على السخيف أن يتولى كتابة العمود الخاص بنقد الكتب .

وأخذ السخيف يصول ويجول ناقداً كل شىء ، محقراً كل إنسان ، دون أن يغير أسلوبه ولهجته ، أو يطامن من عنفه وشدته .

وأصبح هذا الذى كان يفخر بازدراء المراجع والاعتماد على أقوال الثقات إماماً يؤتم به ويستضاء برأيه ، وصار الشبان يعبدونه ويخافونه .

وماذا يستطيع أن يصنع هؤلاء الشبان الصغار !

كانت القاعدة العامة عدم توقير أى إنسان ، ولكن الذى يقصر فى احترامه وتوقيره سيغدو متخلفاً عن العصر .

وللسخفاء مرتع خصيب فى نفوس الجبناء . . .

وهجا ابن الرومى أباعيسى ابن القنوط بقصيدة ممتلئة بالسب والإقذاع ، والتهمة الخطيرة الموجهة إلى الرجل فى رواية ابن الرومى نفسه هى ما يأتى :

أتانى عنك أنك «عبت شعرى» وما زلت المضلل فى قياسك

ولست أشك فى أن ابن الرومى من أعظم شعراء العربية وأقدر شعراء العالم ولكنه كان سخيفاً سخفاً مزرياً حينما سخر عبقريته فى هجاء إنسان ذنبه الوحيد أنه عاب عليه بعض أبيات من إحدى قصائده الكثيرات الطويلات ! وبعض كبار الخالقين فى الأدب والفن تنقصهم الروح العالية ، والخلق العظيم ، وفيهم من إخلاق النساء الولع الشديد بالثناء ، وحب التدليل ، وهم يصدقون المدح المبالغ فيه ، ويطمعون فى المزيد منه ، ويضيقون ذرعاً بالتقدير المعتدل ، والاحتياط فى التشجيع ، وربما عدوه تقصيراً فى حقهم وإهداراً لمكانتهم .

ويتطرف بعض الشعراء والكتاب فينكرون فائدة النقد على الإطلاق وليس ذلك عجيباً فإن هناك من ينكر قيمة الشعر والتاريخ ، وإذا كان هناك من يشك فى قيمة الحياة نفسها فليس من المستنكر أن يزهد فى أى مظهر من مظاهرها .

وقد وجه إلى النقاد الكثير من اللوم والتأنيب ، وقذفوا بمختلف التهم ، وقيل عنهم إنهم كتاب أخفقوا ، وشعراء أخطأهم التوفيق ، وخذلتهم مواهبهم وأرادوا أن يثأروا لعجزهم ، ويستروا تقصيرهم ، فعمدوا إلى معالجة النقد لينالوا من الشعراء والكتاب ، وقد قال الوزير السياسى الأديب دزرائيلى فى رسالة له إلى أحد أصدقائه : «أنت تعرف من هم النقاد ، هؤلاء الذين أخفقوا

فى الأدب أوالفن» وقال كولردج عن النقاد : «النقاد فريق من الناس لو استطاعوا لكانوا شعراء أو مؤرخين أوكتاب تراجم ، وقد جربوا ملكاتهم فى معالجة هذه الألوان من الأدب ولما أخفقوا إنقلبوا نقاداً» .

وهذا رأى فطير ، وكلام غير مأدوم بالسداد ، ولا يرغمنا على احترامه صدوره عن رجال ممتازين مثل دزرائيلى أوكولردج أو غيرهما من الأعلام . والعبقريون فى الأغلب الأعم شديدو الشعور بالنقد ، فإذا عاب الناقد عليهم شيئاً ضاقوا بالنقد جميعه ، وبعض المؤلفين يقولون إنهم لم يفيدوا من النقد ، ولكن النقد ليس هدفه الأول أن يفيد المؤلف أو يعينه ويأخذ بيده . ولكنه برغم ذلك قد يصلح من شأن المؤلف ويجنبه الكثير من المزالق ويوجهه توجيهاً حسناً ، والناقد يكتب للقارئ قبل كل شيء لا للكاتب أو الشاعر ، وهو يكتب ليمتع القارئ أو ليرشده ويهديه ، ولعله — على الأصح — يكتب ليمتعه ويرشده معاً ، فهو يستشعر المتعة فيما يقرأ . ويمكن أن نسمى نقده فيض العواطف والأفكار التى أثارها فى نفسه الكتاب الذى قرأه ، وحماسة الناقد تثير حماستنا وتحفزنا فى دورنا إلى قراءة الكتاب والاستمتاع به ، وقد أجاد أناتول فرانس فى قوله عن النقد : «إنه مخاطرات الروح بين الطرائف» .

وأخطاء النقاد كثيرة لا يدركها الحصر ، ولكن لهم ظروفهم المخففة ، فمن الطبيعى أن ينظر الناقد بشيء من الحسد إلى الخالقين الموهوبين الذين يعبرون فى يسر وسهولة عن أحزانهم ومسراتهم ، ويرخون العنان لخيالهم الموجد وعواطفهم الجائشة ، فى حين أنه محروم من هذه القدرة الخارقة ، ولا يحسن سوى التحدث عما ينتجه الغير وشرحه وتفسيره ، والمؤلف ينام ملء جفونه ، ويستيقظ فيرى نفسه مشهوراً ، كما حدث للشاعر بيرون ، تردد شعره أعذب الأفواه ، وتقرأ قصصه أجمل العيون وأرق النفوس ، وتأتيه كلمات التشجيع والإطراء من كل

صوب ، ثم ماذا يبقى من الناقد ؟

يبقى من حياة الناقد بعد موته بعض جمل ونصوص وأحكام يحفظها الطلبة ويرددونها ترديد الببغاوات ، وهم يلعنون اسمه واليوم الأسود الذى ولد فيه ، أما خلفاؤه من النقاد أتراهم ينصفونه ؟ كلا لأنهم إذا أنصفوه ، واعترفوا بفضله وكفايته ، وصحة أحكامه ، وصدق نظراته ، فعلى من إذن يتعالمون ويتفيهقون ، ويظهرون الحصافة والعمق ، والأستاذية والتمكين ، واللقانة والأصالة ، والطرافة والتجديد ؟ فتنقصه والغض منه وإظهار مافى آرائه من الاعوجاج والشطط يكاد يكون فريضة عليهم ليسوغوا بها مكانتهم ، وليكونوا مجددين ! وربما كان بعض هؤلاء النقاد فى عصور مجدهم يخفضون ويرفعون ، ويخملون ويشهرون ، ويخلقون من النكرة معرفة ويحيلون المعرفة نكرة .

والخلاف القديم بين النقاد والمؤلفين لا ينتظر أن ينتهى ويتم التفاهم بين الفريقين ، والنقد ملكة من الملكات الإنسانية اللازمة المطلوبة فى كل عصر ، وكلما تكاثرت الكتب وتعقدت المشكلات ازداد اعتمادنا على إرشاد الناقد البصير ، وطلبنا إليه أن يجلو لنا الغامض ، ويمهد السبيل للقراءة المنتجة المجدية ، وأن يرينا كيف نتفهم الكتب ونخلص إلى سرها ولبابها ، لنستطيع بعد ذلك أن نتحدث عنها فى الأندية والمجتمعات ، ونظهر بمظهر ذوى العلم الراجح ، والمعرفة الراسخة ، والذوق المهذب المصقول ، وليعرف الناس جميعهم من بدو وحاضرة أننا عصريون غير متخلفين عن قافلة الزمن ! وبعض الناس قد لا يحجم عن ارتكاب الجرائم وإتيان الكبائر ومصاحبة الشياطين خشية أن يرمى بالتخلف والجمود ! وأمثال هؤلاء يجدون فى اتباع آراء النقاد أيسر السبل ليتراءوا فى صورة المجددين العصريين .

والناقد فى العصر الحديث يحتاج إلى ثقافة واسعة وعلم غزير ، ولا معدى له

عن الدراية بعلم النفس وعلم الاجتماع وفلسفة الجمال ، وحقيقة أنه كثيراً ما يتمخض الجبل فلا يلد إلا فأراً ، ولكن الاعتماد على الذوق وحده فى نقد الكتب لا يكفى ، والنقد لا يخلق العبقريات ولكنه قد يشحذ المواهب والملكات ، ويعينها على التفتح والازدهار ، وهو الوسيط بين جمهور القراء والمؤلفين الخالقين ، وللنقد فى العصر الديمقراطى شأن ملحوظ ، والواجب الملقى على عاتق الناقد خطير . وحقيقة أن العبقرية تشق طريقها وتخلق جمهورها ، وترغم الناس على سماعها ، ولكن طريقها قد يكون شاقاً ممتلئاً بالأحجار والصخور . ومما يجدى على المجتمع أن يتأثر بالكاتب الكبير فى حياته ، والنقاد الأكفاء هم أقدر الشراح والمفسرين ، فهم عنصر قوى فى تقوية القدرة على الحكم والتمييز ، وتهذيب الذوق والشعور بالجمال . ولقد قال ليناردو دافنشى : « الناس ثلاث طبقات ؛ طبقة لا ترى الأشياء ، وطبقة ترى الأشياء عندما نبصرها بها ، وطبقة ثالثة تستطيع أن ترى بنفسها » . فأهل الطبقة الأولى ينصرفون عن الأدب الجيد ، والفريق الثانى ينتظرون المفسر البارع ، والدليل الخريت الذى يريهم رؤيا الفنان ، ويجلو غامضها ، ويكشف سرها ، والفريق الثالث كثيراً ما يشغلون بأنفسهم ، ولا يقومون بواجبهم ، والناقد الصالح هو الذى ينهض بهذه الفرائض ويحتمل هذه التبعات ، وعصور الخلق العظيم فى الأدب والفن كثيراً ما يسبقها ويمهد لها عصور نقد وتمحيص ممتازين للأدب والفن ، والقوى الناقدة لازمة للحضارة لزوم القوى الخالقة .